سيرة السيد عمر مكرم

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

بقلم الأديب توفيق الطويل

بارح الجيش الفرنسي أرض مصر بعد أن عرف الشعب مكانة ظالميه عند دفع العاديات، فرأى جيش السلطان لا يملك العودة إلى القاهرة إلا في ظلال أعوانه الانجليز، ورأى المماليك يفرون إلى الشرق ويهربون إلى الغرب ويلتمسون صداقة الفرنسيين أو مرضاة العثمانيين أملا في العودة إلى حكم البلاد، فعرف الشعب من ذلك أن مصيره موكول إليه وأن اعتماده على غير نفسه غفلة وخداع لا ينبغي أن يطولا. وكان على يقين بأنه يستطيع أن يصمد للحرب الطاحنة وحده شهوراً وأياماً كما فعل في ثورته الثانية العنيفة على الجيش الفرنسي المنظم. وكان زعماء هذا الشعب الكريم تعوزهم التضحية وينقصهم الاخلاص، ينتفعون بتقلبهم مع الحكومات على حساب الوطن المسكين سوى رجل واحد جمع الزعامة والجهاد والتضحية. كان ينزوي حين لا تنفع المقاومة، ويثور ثورة الأسد حين تمس الحاجة إلى الثورة والتمرد. ذلك هو السيد عمر مكرم... فلما سمع صوت الشعب يدوي مطالباً بحكومة جديدة خرج من عزلته وتولى قيادته. واحتشدت جموع الشعب التي بلغت أربعين ألفاً بجوار الأزهر على كثب من بيت القاضي الذي كان يجتمع فيه الزعماء لاختيار الوالي الجديد. وانعقد اجماعهم على قبول «محمد علي باشا» والياً بعد أن رشحه الزعيم الأكبر «عمر مكرم» لما عرفوه عنه من الذكاء والعدل والشهامة والعطف على المصريين

وقد ذاع صيته في أواخر أمره وذهبت شهرته في الآفاق، وأتته الهدايا من الروم والشام والعراق، وكانت وفاته سنة ١١٩٩ هـ

وقد زاد المحبي على ما ذكره الجبرتي من ذلك أنه بلغ أمره أن صار شيخاً للأزهر، وأن أول من انتزع مشيخة الأزهر من المالكية، وكان رحمه الله شافعياً

فهذا اضطراب آخر في شيوخ الأزهر، فالشيخ المنير غير معدود في هؤلاء الشيوخ، وقد كان شيوخ الأزهر في عهده الشيخ عبد الباقي المالكي القليني، فالشيخ محمد شنن المالكي، فالشيخ عبد الله الشبراوي الشافعي، فالشيخ محمد الحفني الشافعي، فالشيخ عبد الرؤوف السجيني، فالشيخ أحمد الدمنهوري، فالشيخ أحمد العروسي، وقد صار أولهم شيخاً للأزهر سنة ١١٢٠ هـ وصار آخرهم شيخاً له من سنة ١١٩٣ هـ إلى سنة ١٢٠٨ هـ

والشيخ عبد الله الشبراوي هو الذي ذكر صاحب تاريخ الأزهر أنه أول من تولى مشيخة الأزهر من الشافعية، وقد صار شيخاً للأزهر من سنة ١١٣٧ هـ إلى سنة ١١٧١ هـ، فكيف يكون الشيخ المنير شيخاً للازهر بين توالي أولئك الشيوخ؟ وكيف يكون أول من انتزع مشيخة الأزهر من المالكية إلى الشافعية؟

فالحق أن الشيخ المحبي أخطأ في هذا كما أخطأ قبله الشيخ عبد الغني النابلسي في الشيخ منصور المنوفي الشافعي، وقد كانا شاميين بعيدين عن الأزهر ورجاله، ولا شك أن هذا يضعف من قيمة ماشذا فيه من ذلك.

ولو صح أن الشيخ منصور المنوفي كان شيخاً للأزهر كما ذكر الشيخ عبد الغني النابلسي لكان هو الذي انتزع مشيخة الأزهر من يد المالكية إلى الشافعية لا الشبراوي ولا المنير لأنه أقدم عهداً منهما كما سبق.

عبد المتعال الصعيدي

زاء الطغاة من حكامهم . . . وقبل الوالى الجديد ترشيحهم بعد
رد . فقام إليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى وألبساه
كرك والقفطان فى بيته وخلعا عليه حكم البلاد باسم الشعب
صري الكريم . وكان ذلك فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ ، فتميز
والى القديم « خورشيد باشا » غضباً وقال: « ولاني السلطان فلن
زلني الفلاحون » فلم يكن بدّ من أن ينزله هؤلاء الفلاحون
قوة من قصره بالقلعة . وبدأ الكفاح المجيد بين شعب يفدي
اكه الذي اختاره لنفسه بل يفدي حريته واستقلاله بالمهج والأرواح،
بين جيش يريد أن يحكمه على غير إرادته .. وكانت الثورة قائمة على
دأ أعلنه الزعيم الأعلى لرسول السلطان الذي احتج بقوله تعالى :
وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فأجابه الزعيم
ن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وأن
سلطان أو الخليفة نفسه إذا سار فى الناس بالجور والظلم كان لهم
زله وخلعه . . .

وأصاب الشعب النصر الحاسم داخل المدينة وخارجها . . .
ارح البلد خورشيد باشا بعد أن عرف بالتجربة أن إرادة الشعوب
إرادة الله . . .

ولبث الشعب المجيد يعين حكومته الجديدة فى رد أعدائها
مماليك وأتراك وانجليز حتى نحاه عن ذلك « واليه » وصارح
يمه بأن واجب الدفاع والاشتراك فى سياسة البلاد قد سقط
الشعب بعد أن صارت قوة الدولة كفيلة به . . . ونهض الوالى
بلاد نهضة زاهرة شملت تجارتها وزراعتها وصناعتها وثقافتها
كنها كانت بعيدة عن روح الشعب الذى أكره على الاعتزال
تكن ثمرة جهاده ولا نتيجة سعيه ولا وليدة ذهنه فذبلت
انت بموت موجدها . .

واعتزل الزعيم ، حتى إذا اشتط الوالى فى ضرائبه التي أكرهته
ها كثرة إصلاحاته وحروبه خرج من مكمنه وأعلن مبدأه
ى لا يقبل فيه شكا ولا جدلا : أن ليس للباشا أن يغير نظام
حكم ولا أن يفرض ما شاء من الضرائب ولا أن يحكم الشعب
ر قانونه وعاداته . . ولكن الباشا عرف كيف يفرق بين الزعماء
تفع بحقدهم على زعيمهم فيأمر بخلعه من نقابة الأشراف

ونفيه بعيداً عن موطن الثورات . .

هذا موجز مشوه لسيرة البطل الذى تناوله الأستاذ الجليل محمد فريد أبو حديد فى كتابه القيم الممتع الذى أصدره فى هذين اليومين وأبان فيه نهاية الكفاح المجيد الذى كان الشعب المصرى قد بدأه منذ قرن ونيف من الزمان . . والكتاب آية أدبية جمعت ثلاثة عناصر قلّ أن تجتمع فى كتاب : دقة العلم ، وجمال الفن ، وحرارة الوطنية .

على أن فى الكتاب رأياً ترددت كثيراً فى التسليم به ، ذلك هو تحديده للوقت الذى تحرك فيه الشعب المصرى للمحافظة على حقوقه وحرياته بعام ١١١٤ هـ إذ أن الحادثة التى أبدت هذا تتلخص في شكوى رفعها العلماء إلى الديوان فاستجيبت لعدالة الحاكم « الفعلى » يومذاك لا لحرص الشعب وزعمائه على حقوقهم ولا لخوف الحاكم من عنادهم . فأما عدالة الحاكم فيشهد بها قول الشيخ حسن الحجازى شاعر العصر يرثيه :

ألا قل لمن فى موت حاكم مصرنا
غدا فرحاً لا عشت حلّ بك النقم

إلى أن قال :

فأرجح ميزاناً وأوفى مكاييلا ... وأخمد نيراناً وقام به سلم
وليس له من مبغض غير معرض ... عن الحق أو من فى عقيدته سقم

إلى آخر ما جاء فى الرثاء الذى أورده الجبرتى (١٠٧ و ١٠٨ ج ١)

وأما الدليل على أن الشعب وزعماءه يومئذ لم يكونوا قد آمنوا بعد بالحرص على حرياتهم وحقوقهم فيشهد به مجيء فرمان من الدولة عام ١١٣٧ هـ يأمر بمنع العلماء من اجتماعهم بالباشا . وكان ذلك في وقت قد اشتد فيه الظلم ، وعانى الشعب ألواناً من التعدي على الحريات وانتهاك الحرمات ونهب الأموال ، فلم يقاوم الفرمان شعب ولا زعماء . ولما تكرر الظلم بعد هذا طالب الشعب العلماء بالذهاب إلى الباشا فاعتذر هؤلاء الزعماء بأنهم ممنوعون من طلوع القلعة ... ! (١٣١ ، ١٣٥ ج ١ من الجبرتى) فالشكوى وحدها ليست دليلاً على التحرك لدفع الظلم ، وإنما الدليل أن يقاوم المظلوم حتى ينتصف أو يستشهد .

obeikandl.com

والرأى عندي — إن صح أن يكون لى رأى إلى جانب رأى أستاذى المؤرخ — هو أن الشعب قد تحرك للمحافظة على حقوقه وحرياته في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الميلادى (أواخر الثانى عشر الهجرى) إذ سمعنا فى هذه الفترة سلسلة من الحوادث تقوم على دفع الظلم ومقاومة أهله والاعتزاز بالحرية . ورأينا فيه كيف يهتم الحكام — أقوياء وضعفاء وعدول وظلمة — بالرأي العام وزعامته . وسمعنا بالحفنى وابن النقيب والصعيدى ، وعرفنا موقف العلماء فى فتنة الوقف ، بل أروع من هذا كله موقفهم فى فتنة الأزهر (٥٦ ج ٢ من الجبرتى) يوم رفضوا شيخ الأزهر الحنفى حين عينه شيخ البلد ولم ييأسوا بمنطقه يوم أصر قائلا لهم : أليس الحنفية مسلمين كالشافعية ؟ أليس مذهب النعمان أقدم المذاهب ؟ أليس القاضى حنفياً والوزير حنفياً والسلطان حنفياً . . . ؟ وانتهى إصرارهم بالانتصار الحاسم على أكبر رأس فى البلد .

ورأينا فى هذه الفترة العالم الذي يغضب على الحاكم فيقول له فى وجهه : لعنك الله ولعن اليسرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً (١٩ ج ٢) ورأينا العالم الذى يقول للعامة وهى تستنصره لدفع الظلم الذى يوقعه الحكام بهم : « فى غد نجمع أهالي الحارات والأطراف وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم وننهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم » فما جاء مساء ذلك اليوم حتى ذل له الحكام واستكانوا لعناده (١١٠ ج ٢ من الجبرتى)

تكرر هذه الحوادث وظهور المقاومة فيها جميعاً هو الشاهد العدل على تحرك الشعب لحقوقه فى هذه الفترة . . . أما مجرد الشكوى من الظلم فى فترات متقطعة ، والصبر عليه ، والعجز عن التمرد والسكوت عن كفاح المستبد حين يصر على استبداده فهو الدليل على أن الشعب لا يحرص على حقوقه ولا يتحرك للمحافظة على حرياته . . .

هذا هو الرأى الذى خطر لى عند قراءة هذا الكتاب القيم الذى كسبته القومية المصرية وربحه الناطقون بالضاد . . .

توفيق الطويل

يا ليل الصب ومعارضاتها

أعاد السيد محي الدين رضا طبع قصيدة « يا ليل الصب متى غده » لأبي الحسن الحصرى وهى تقع فى ٩٩ بيتاً ومعارضاتها قديماً وحديثاً وهي ٣٠ معارضة لأشهر الشعراء أمثال : شوقى وصبرى وولي الدين يكن والأمير نسيب والزهاوى والرافعي والزركلى ونظيم والمعلوف والخوري . وهى تقع فى ٥٤ صفحة من القطع الصغير طبعت على ورق جيد وثمن النسخة عشرة مليمات وتطلب من مكتبة خضير بالعتبة الخضراء بمصر وأجرة البريد خمسة مليمات

رحلتى إلى الحجاز

للأستاذ محي الدين رضا

هو مجموعة مقالات نشرها المؤلف فى مختلف الصحف المصرية عن رحلته إلى الحجاز ، وقد حوت وصفاً صحفياً طريفاً لكثير من نواحى الحياة فى هذا البلد الأمين وصوراً قلمية لكثير من شخصياته . والكتاب دعاية حسنة للحج وتشجيع على تأدية هذه الفريضة من فروض الدين .

قلم خضير
تليفون ٥٠١٠٥
صنع بريطانيا
١٠٥٧
بريشة ذهب عيار ١٤
مضمون ٣ سنوات
تستعمله الحكومات الشرقية
مكتبة ومطبعة خضير بشارع عبد العزيز بمصر

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧ ﴾